مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد 06 العدد 02 جوان 2023 ص ص 306ـ322
ر س ع و (ISSN): 2602ـX618 / ر س ع و إ (E-ISSN): 2710ـ8031

الدور الفكري والثقافي لولايات الجنوب الغربي

من خلال كتاب "تاريخ المدن" للعلامة الشيخ المؤرخ المهدي البوعبدلي

The ideological and cultural role of the southern-west towns, in "the history of death" written by the historian scholar Elmahdi Elbouabdelli

عبد الرحمان رزقي ♦

جامعة معسكر - abderahmane.rezki@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 2023/02/15 تاريخ القبول: 2023/05/21 تاريخ النشر: 2023/06/30

الملخص باللغة العربية: إنّ الشيخ المهدي البوعبدلي من كبار علماء الجزائر ومؤرخيها مصلحيها، الذين خلفوا أعمالا علمية جليلة، ومن الذين عملوا على إصلاح أوطانهم، والنهوض بها للأخذ بأسباب التقدّم، وتوجيه أبنائها في دروب العلم، وتخليصهم من رواسب التحجر والتخلف. وكان من الذين أخذوا على عاتقهم أمانة خدمة التاريخ، وإماطة الثمام عن أسراره ودفائنه، وإحيائه بعد ذهاب ريحه، وذلك بردّ تحريفات المؤرخين الفرنسيين المتحاملين، فصحح بذلك المسار، ورفع عن مخطوطاته الغبار، كل ذلك لتترسخ في نفوس الأجيال القادمة معاني قيمة التاريخ الوطني، والانتماء العربي الإسلامي.

وقد ساهم الشيخ المهدي البوعبدلي من خلال بحوثه ومقالاته المنشورة والمخطوطة ومحاضراته في الملتقيات الوطنية والدولية، بيان الإسهامات الثقافية والحضارية لمختلف مدن الجزائر، وخصص حيزا في كتاب "تاريخ المدن" لمدن الجنوب والجنوب الغربي الجزائري، أشار فيها إلى دورها الفكري والثقافي والحضاري، وأهمية موقعها الجغرافي وثرواتها الطبيعية، وأهم البيوتات العلمية وأشهر رجالاتها، والمراكز والزوايا الدينية، والطرق الصوفية، وخزائن المخطوطات، ومن اهتم بالكتابة عنها من المؤرخين الأجانب، والعسكريين الفرنسيين الذين تواجدوا بالمنطقة، ورد الكثير من دعاواهم الباطلة التي تنافي الحقيقة.

الكلمات المفتاحية: الجنوب الغربي؛ تمنطيط؛ تُوات؛ المغيلي؛ البسيط في أخبار تمنطيط.

♦ **المؤلف المرسل**

Abstract: Sheikh Al-Mahdi Al-Boabdali is one of Algeria's great scholars, historians, and reformers, who left behind great scientific works, and among those who worked to reform their homelands and advance them in order to take the causes of progress, guide their children in the paths of knowledge, and rid them of the deposits of petrification and backwardness. And he was one of those who took upon themselves the responsibility of serving history, removing the veil from its secrets and burials, and reviving it after its wind had gone, by refuting the distortions of the prejudiced French historians, so he corrected the course, and removed the dust from his manuscripts, all of this to entrench in the hearts of future generations the meanings of the value of national history and belonging Islamic Arab. Sheikh Al-Mahdi Al-Boabdali, through his research, published articles, manuscripts, and lectures in national and international forums, contributed to explaining the cultural and civilizational contributions of the various cities of Algeria. Geography and its natural wealth, the most important scholarly houses and its most famous men, religious centers and corners, Sufi orders, manuscript treasuries, foreign historians and French military who were present in the region were interested in writing about it, and many of their false claims that contradict the truth were reported.

Keywords: Southern-west ; ralentit ; Touat ; Elmaghili ; Elbassit in Tamentit news.

مقدمة:

يعتبر المؤرخ المرحوم المهدي البوعبدلي أحد أبرز أعلام الجزائر المعاصرة في التاريخ والتحقيق والمعرفة الموسوعية، والإلمام الواسع بتأريخ الجزائر عبر العصور، معتمدا في ذلك على ذاكرة قوية، وخزانة عامرة غنية بصنوف مختلفة من الكتب والمخطوطات، طبقت شهرتها الآفاق، بما تحويه من مصادر ومراجع مطبوعة ومخطوطة، بالإضافة إلى كتب ووثائق باللّغة الفرنسية.

1. التعريف بالمؤلف:

ولد الشيخ المهدي البوعبدلي سنة 1907 بالشلف، في أسرة علم وجهاد مع الأمير عبد القادر. درس القرآن الكريم وحفظه في مسجد والده الشيخ أبو عبد الله المغوفل، كما درس مبادئ اللّغة والفقه، ثم انتقل للدراسة في مدينة مازونة، حاضرة العلم والثقافة لمدة

سنتين، وبعدها قصد جامع الزيتونة بتونس للدراسة، حتى نال شهادة التحصيل، وكان يرافقه هناك كل من الشيخ أحمد حماني، والشيخ الزاهري والشيخ علي المغربي وآخرين.

عاد إلى الوطن عام 1938، ليشتغل بالصحافة، وبعد عُين إماما في مسجد وهران العتيق، ثم مفتيا لعدة سنوات في ولاية بجاية، وعاد بعد ذلك إلى مسقط رأسه في الشلف، ممارسا وظيفة الإفتاء حتى اندلاع الثورة التحريرية المباركة سنة 1954.

ومنذ عام 1974 تولى الإشراف على الزاوية والطريقة في بطيوة، متفرغا لهذه المهمة لكي تؤدي رسالتها الدينية والتربوية، حيث يتم تحفيظ القرآن الكريم، والسيرة النبوية الشريفة وتعليم العلوم الشرعية واللّغة العربية.

وقد اشتهر الشيخ المهدي البوعبدلي بولعه وحرصه على اقتناء كتب التراث من مخطوطات ومطبوعات، ووثائق مختلفة، حيث كان يبحث عنها حيثما وجدت، ويجمع المخطوطات النادرة والنفيسة، ويسهر على الاطلاع على محتوياتها ومضامينها، للاستزادة من المعلومات والمعارف التي كان مولعا بها.

وقد قام بتحقيق مخطوطين هامين هما: "دليل الحيران وأنيس السهران وأخبار مدينة وهران" للشيخ محمد بن يوسف الزياني[1]، و"الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" للشيخ أحمد بن محمد الراشدي[2]، وكلا الكتابين بحاجة إلى تحقيق علمي، لكي تتحقق الفائدة القصوى منهما.

إنّ الشيخ المهدي البوعبدلي جمع كمًّا هائلا من المخطوطات والكتب القديمة، وصار خبيرا بها وعارفا بأماكن تواجدها في الجزائر وخارجها، ولم يبخل رحمة الله عليه على الذين راسلوه بشأنها من المؤرخين، منهم الدكتور أبو القاسم سعد الله، والدكتور يحي بوعزيز، والمستشرق الفرنسي جاك بيرك، وغيرهم كثير.

وقام المرحوم الأستاذ الدكتور سعد الله أبو القاسم بنشر 16 رسالة وصلته من الشيخ البوعبدلي ساعدته بمعلومات مهمة ضَمَّنَها في موسوعته الشهيرة "تاريخ الجزائر الثقافي"، لما تضمنته هذه الرسائل من معلومات أدبية وثقافية وتاريخية، فهي تتناول

1- الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران وأخبار مدينة وهران، تحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط 1، الجزائر، 2013.
2- الراشدي أحمد بن محمد، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي، ط 1، الجزائر، 1973.

أعلام من المثقفين وكتبهم، وعن أنشطة فكرية، واجتهادات علمية، وأخبار جغرافية، وعن وثائق ومخطوطات ذات أهمية بالغة في التاريخ، كما ورد في بحث للأستاذ الدكتور مولود عويمر بعنوان "الشيخ المهدي البوعبدلي راهب التاريخ"[3].

شارك الشيخ المهدي البوعبدلي في ملتقيات دولية ووطنية بمحاضرات كثيرة الفائدة، غزيرة المعلومات، عن الحواضر الجزائرية ودورها الحضاري والفكري، وعرّف بأشهر رجالاتها في الفكر والثقافة، وشارك كذلك في المؤتمرات التاريخية الدولية، للتعريف بتاريخنا الوطني، وتراثنا الفكري في المحافل العلمية الدولية.

وقد نشر العديد من البحوث التاريخية في مجلة "الأصالة"، وقدم العديد من الدراسات في ملتقيات الفكر الإسلامي، حيث كان مواظبا على المشاركة فيها.

إنّ ما يُميّز كتابات الشيخ البوعبدلي أنّها لا تلتزم بدراسة فترة معينة محددة، بل تدرس عصورا تاريخية مختلفة، مثال ذلك "جوانب من تاريخ تمنراست الثقافي والحضاري عبر العصور"، أو "لقطات من تاريخ الهقار في المجالات الثقافية والحضارية والسياسية"، أو "جوانب من تاريخ بونة (عنابة) عبر العصور"، أو "التعريف بمدينة تلمسان وولايتها عبر العصور".

إنّ الغالب الأعم على كتابات الشيخ، هي المقاربة السردية الشمولية، كما هو شأن العديد من المؤرخين الذين لم يتعرفوا على مناهج البحث العلمي الحديثة، ولم يتخرجوا من الجامعات العصرية.

ونظرا لجهوده العظيمة الكبيرة في كتابه التاريخ الوطني، وإسهاماته في نشر الفكر والثقافة، منحته جامعة وهران في عهد مديرها الأستاذ عبو محمد، شهادة الدكتوراه الفخرية في احتفال أقيم في مركز التوثيق بوهران بشارع العربي بن مهيدي CRIDISH.

وقام المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، مشكورا، سنة 2013 بطبع أعماله في 8 مجلدات، لكي يستفيد منها المؤرخين والباحثين والطلبة، تخليدا لذكراه أوّلا، وأنّها ثانيا تشكّل إضافة إلى المكتبة التّاريخية، وتسهل على الباحثين والطلبة الوصول إلى ما خلفه الشيخ من تراث علمي وفكري.

3- عويمر مولود، الشيخ المهدي البوعبدلي (1907- 1992)، راهب التاريخ، "البصائر"، العدد 6، جوان 2018.

توفي الشيخ المؤرخ المهدي البوعبدلي يوم السبت 6 جوان 1992، ودفن بمقر زاويته في بطيوة خارج المسجد كما أوصى بذلك.

2- الكتاب:

إنّ الكتاب الذي أنا بصدد عرض محتواه، وعلى وجه الخصوص ما يتعلق بولايات الجنوب الغربي ودورها الفكري والثقافي، صدر تحت عنوان "تاريخ المدن" قام بجمعه وإعداده الأستاذ عبد الرحمن ذويب، صدر ضمن الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي سنة 2013 بالجزائر، التي طبعها المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، بمناسبة الذكرى الخمسين لاستقلال الجزائر، يقع الكتاب في 636 صفحة من القطع المتوسط[4].

إنّ البحوث والمقالات التي تضمنها الكتاب، بعضها منشور ضمن أعمال ملتقيات الفكر الإسلامي أو في مجلة "الأصالة"، والبعض الآخر مرقون على الآلة الكاتبة، ومجموعة أخرى مازالت مخطوطة بقلم الشيخ، حصل عليها الأستاذ عبد الرحمن دويب من مكتبة الشيخ الخاصة.

المنهج المتبع من قبل الشيخ، كما أشرت إلى ذلك سابقا، في مقالاته وبحوثه ومحاضراته هو المنهج السردي الوصفي، يستشهد بآيات القرآن الكريم، مع الإشارة إلى السورة ورقم الآية، ويورد أحاديث للرسول صلى الله عليه وسلّم، وكثيرا ما يورد مقطوعات شعرية أو أبيات معينة لها علاقة بالموضوع الذي يكتب عنه.

في بعض الأحيان يذكر "وقد احتفظ لنا التاريخ ببعض الوثائق، تبين كيفية إنشاء هذه الرباطات، منها وثيقة مؤرخة في سنة 954هـ الموافقة لـ1548م، بخط العلامة الشيخ عبد الرحمن اليعقوبي، صاحب المعهد المشهور الآن بمعهد اليعقوبي بنواحي ندرومة". مما لا شك فيه إمّا أنّه يحتفظ بهذه الوثيقة في مكتبته الخاصّة، أو أنه اطّلع عليها وقرأ محتواها.

وعندما يستشهد بنص من كتاب ما، فإنه يضعه بين مزدوجتين، ويشير إلى المؤلف ولكنه لا يذكر الصفحة التي نقل عنها الفقرة، ولا يشير في نهاية البحث إلى المصادر والمراجع التي اعتمدها.

4- الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، إصدار المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، 2013.

وعند تعرضه للكتاب الأجانب، فإنه يفصل في محتوى الكتاب، ويرد على المؤلف ويناقش أفكاره، ويبيّن السلبيات والإيجابيات بكل موضوعية علمية، إلاّ أنّه لا يشير إلى الطبعة التي استخدمها في بحثه، ومتى وأين صدرت، مثال ذلك: «كتب ستيفان قزيل (Stephane Gsell) كتابه الشهير "التاريخ القديم لأفريقيا الشمالية"[5]، والكتاب يشمل ثمانية أجزاء، خص جلّها لتاريخ الحضارة البربرية في المدة التي تتراوح بين سقوط قرطاجنة واحتلال روما البلاد...»[6].

كَتَب يُعَقِب على الكتاب بقوله: «إنّ هذا التأليف قيم في موضوعه، وصاحبه مشهور بالعلم وعمق التفكير وسعة الاطلاع، وهو وإن كان من "أقطاب أفريقيا المسيحية"، و"الجزائر الفرنسية"، إلاّ أنّ تأليفه هذا يتوقف عليه تأريخ البلاد، فهو دعامة لربط حاضرها بماضيها»[7].

ثم يتناول بالنقد العلمي والتاريخي كتاب آخر هو "ماضي أفريقيا الشمالي في القرون المظلمة"، لأميل فيلكس قوتي (E. F. Gauti)، كتب يقول: «كان هذا المؤلف من غلاة المعمرين، له عدّة تآليف لم يخف فيها هويته الاستعمارية المتطرفة، وقد ارتكب عدّة غلطات فادحة، تتناقض في كثير من الجزئيات مع الاختصاصيين في التاريخ، حتى من الاستعماريين أنفسهم»[8].

في كتاب "تاريخ المدن" يتعرض الشيخ المهدي البوعبدلي إلى بعض مدن الجنوب الغربي، وكانت ولاية تمنراست أوّل المدن التي تناولها المؤلف في كتابه في الصفحات من 217- إلى 233، في محاضرة ألقيت في المؤتمر الثالث عشر للفكر الإسلامي المنعقد في تمنراست تحت عنوان "لقطات من تاريخ الهقار في المجالات الثقافية والحضارية والسياسية"، ونشرت في مجلة "الأصالة" العدد 72، حيث يشير إلى تأريخ المنطقة القديم، والذي يعود إلى عشرة قرون قبل الميلاد، وسكانها من الطوارق (التوارق)، وأهمية موقعها الجغرافي، باعتبارها صلة وصل بين حوض البحر الأبيض المتوسط وتخوم السودان، ويشير إلى عناية المؤرخين والرحالة المسلمين بتاريخ المنطقة كابن حوقل في كتابه "صورة

---

5 - Gsell Stephane (1864- 1932), Historie ancienne de l'Afrique du Nord, Paris, 1913.

6- البوعبدلي الشيخ المهدي، تاريخ المدن، الأعمال الكاملة، المجلد 2، ص 115.

7- نفس المرجع، ص 117.

8- نفس المرجع، ص 119.

الأرض"[9]، وأبا عبيد البكري في "المسالك والممالك"[10] وغيرها، فذكروا القوافل التجارية التي كانت تجوب الطريق، انطلاقا من بلاد المشرق عن طريق مدينة القيروان، ثم على طريق قلعة بني حماد إلى أوداغست، منبع مناجم الذهب.

ولم تكن التجارة هي السبب الوحيد لاهتمام الباحثين والمؤرخين والجغرافيين، بل كانت هناك دواع أخرى، منها آثارها الحضارية، كبقايا فن النحت والتصوير على الصخور، أو الحجارة ولبعض العلماء المتخصصين في السلالات البشرية، يشكل التوارق –سكان الهقار أهمية كبيرة.

ثم يتعرض إلى تاريخ المنطقة بعد احتلالها من قبل فرنسا الاستعمارية، ونشاط الراهب الأب دوفوكو منذ اتخاذه لها مقرا للإقامة من سنة 1905 إلى أن لقي حتفه في ديسمبر 1916.

إنّ منطقة الهقار وسكانها من الطوارق كانت ومازالت محل اهتمام الباحثين والمؤرخين والرحالة والمستكشفين، جزائريين وأجانب، وبخاصة الضباط الفرنسيين في ظل الاحتلال، ونادرا ما نجد دراسات باحثين جزائريين حسب علمي باستثناء تلك التي أنجزها الدكتور يحي بوعزيز، والدكتور إسماعيل العربي، والعقيد عبد السلام بوشارب وغيرهم من الذين ساهموا في أعمال الملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي بولاية تمنراست.

ومن الدراسات الأكاديمية الهامّة، رسالة ماجستير الهاشمي أمال "الوضع الاجتماعي والفكري لطوارق الهقار من خلال الكتابات الفرنسية في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر"[11]، وكذلك مذكرة الباحثتين: حمو علي مباركة وتكرا حنان "قبائل الطوارق من خلال المستكشفين هنري دوفيري وشارل دوفوكو"[12]، إلاّ أنّ جل اهتمام هؤلاء انصبّ حول الأصول العرقية لسكان المنطقة، وعاداتهم وتقاليدهم وطقوسهم الدينية، وكذلك معلومات جغرافية وطبيعية عن الحيوانات والنباتات بتفصيل ممل ودقّة متناهية، ولأنّ طبيعة

9- ابن حوقل أبي القاسم محمد بن علي النصيبي، كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، 1992.

10- البكري أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز، كتاب المسالك والممالك، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

11- الهاشمي آمال، الوضع الاجتماعي والفكري لطوارق الهقار، رسالة ماجستير غير مطبوعة، جامعة وهران.

12- مباركة حمو علي، نكرا، حنان، قبائل الطّوارق من خلال المستكشفين هنري دوفيري وشارل دوفوكو أنموذجا، مذكرة ماستر غير مطبوعة، قسم التاريخ، جامعة أدرار، 2020.

المجتمع الطرقي، وتوزعه إلى قبائل وبطون، ضمن وحدات اجتماعية واقتصادية مهمة تنتحي كل قبيلة بموقع تتخذه مجالا للتّحرك سعيا وراء الماء والكلأ، لرعي أنعامهم، أي مجتمع متنقل، رحالة لا يعرف الاستقرار، في بيئة منعزلة بين مرتفعات الهقار البركانية وسط أرض صحراوية قاحلة، لا يمكن أن ينتج أدبا أو فكرا أو فنا، إلا في النادر، والتحفظ هنا ضروري، لوجود استثناءات، وليس كما هو الحال في المجتمعات المستقرة، غير الرحالة، في الشمال أو الشرق أو الوسط، أي أنّ طبيعة المنطقة ونمط الحياة فيها، فرضا شروطهما على الإنتاج الفكري والثقافي، حيث أنه وإن وُجد، فإنّه في حدود ضيقة جدا، ولم يكتب له الذيوع والانتشار.

ولعلّ أبرز الأسماء في المجال الأدبي، التي تنتمي إلى الطوارق، الأديب الروائي إبراهيم الكوني، والكاتب والشاعر محمدين خواد، الذي درس في شبابه بمصر والعراق، ويقيم حاليا في فرنسا، ويتناول في أعماله موضوعات العطش، الترحال، أشهر أعماله رواية "هوامش"، وقد ترجم الشاعر السوري الشهير أدونيس قصيدته "وصية البدوي" إلى العربية. إلى جانب من ذكرت هناك أسماء في سماء الأدب والثقافة الترقية مثل إبراهيم أغ الحبيب وإسوف أغ ماها.

3. ولاية أدرار:

وحظيت ولاية أدرار بالدراسة في كتاب "تاريخ المدن" بمحاضرة بعنوان "أضواء على مدينة تمنطيط ودور الإمام المغيلي بها في قضية يهود توات"، استغرقت الصفحات من 307 إلى 324 من الكتاب المذكور، ركز فيها على حياة العالم الشهير الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، ومعاركه الفقهية حول إجلاء يهود توات وتهديم الكُنس الخاصة بهم، لمخالفتهم شروط حياة أهل الذمة في ظل الوجود الإسلامي، ولأنهم سيطروا على البلاد والعباد، واستحوذوا على الخيرات والثروات، وتطرق إلى موقف القاضي سيدي عبد الله العصنوني المخالف له، واستنصاره بفقهاء تلمسان كالشيخ أحمد بن زكري، في حين أنّ الإمام محمد بن يوسف السنوسي، مجدّد علم التوحيد، وزميله الإمام العالم محمد بن عبد الجليل التنسي، والعالم الشهير الشيخ إبراهيم بن عبد الجبار القجيجي وقفوا إلى جانب الشيخ المغيلي وصوبوا ما ذهب إليه في فتواه بأن اليهود "نقضوا العهد وخرجوا عن الذمة"[13]، وأنّ تصرفاتهم منفية لسلوك أهل الذمة حتى يضمنوا لأنفسهم حماية الدين الإسلامي، إذ ما ثار عليهم المغيلي إلا لعدم مراعاتهم لذلك.

13- الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، المجلد 2، صفحة 315.

في هذا المقال يتناول مراحل اطلاعه ثم حصوله على نسخة أصلية من مخطوط (البسيط في أخبار تمنطيط) لمؤلفه العلامة محمد الطيب بن الحاج بن عبد الرحمن التواتي التمنطيطي القرشي، حيث جمع فيه أخبار المدينة منذ التأسيس في أوائل القرن السادس الهجري، وأول من بنى قصرها الأول، هو جد المؤلف أبو يحي ابن محمد المنياري، نسبة لبني منيار، قبيلة من العرب معروفة بأرض التلول.

وقد حضيت قضية يهود توات بالجزء الأوفر من المحاضرة، حيث أشار الشيخ المهدي البوعبدلي إلى تناول الفقيه الشهير أحمد بن يحي الونشريسي للقضية في كتابه "المعيار المعرب عن فتاوى أفريقيا والأندلس والمغرب"[14].

وتحدث الشيخ المهدي البوعبدلي عن دور المغيلي في الدفاع عن دراسة علم المنطق والفلسفة، وجداله مع الإمام جلال الدين السيوطي، وأن لا خير من دراسة العلوم وتعلمها وتعليمها، إلا أنّ الممنوع هو ما تعلق منها بالعقائد الإسلامية.

ويرى الشيخ المغيلي أنّ لا حرج من دراسة الثقافة الأجنبية، بل يجب تعلم العلوم بقطع النظر عن عقائد أصحابها، إلاّ فيما يرجع للعلوم الدينية، وقد أثبت رأي المغيلي في قراءة علم المنطق الذي رد به على السيوطي كثير من علماء التراجم من بينهم صاحب كتاب "البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان" في ترجمته للمغيلي.

4. ولاية تمنراست:

وكانت المحطة التالية في موضوعات "تاريخ المدن" هي [جوانب من تاريخ تمنراست الثقافي والحضاري عبر العصور، من الصفحة 325 حتى صفحة

هذه هي محاضرة مخطوطة تقع في 56 صفحة، لم يسبق للشيخ المهدي البوعبدلي أن ألقاها أو نشرها، يُعرّف من خلالها بتاريخ تمنراست مذ كانت قرية بسيطة تحيط بها قرى أخرى، تحتوي على اثنين وعشرين أسرة، حتى توسعت وتطورت واشتهرت كقاعدة بلاد التوارق، لفتت إليها أنظار الكتّاب والمؤرخين والفنانين والرحالة، حيث عرفها المؤرخ الجزائري محمد أبو راس الناصري الذي قال في كتابه "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار"[15]

14- الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقيا والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1981، أنظر: الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، المجلد الثاني، صفحة 314.

15- الناصري محمد أبو راس الراشدي، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقيق وتقديم محمد غانم، المركز الوطني للبحث في الأنتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، 2005.

عند تعريفه لقبائل صنهاجة «ثم إنّ صنهاجة أهل اللثام المعروفون عندنا بالتوارق، مساكنهم بين السودان وبين الرمال التي هي كقوم بلاد البربر، متصلون بالبحر المحيط لهذا العهد في المغرب العربي إلى ساحل النيل بالمشرق».

كتب يقول معلقا على نص المؤرخ أبي راس «أثبته على طوله لما اشتمل عليه من الفوائد، إذ أنّه قريب عهد للاحتلال الفرنسي، فلم يطرأ على الناحية تغيير كبير، أمّا الكتّاب المتأخرون، فإنّ معظمهم استمدّ كتاباته من المصادر الأجنبية، وهي في مجموعها لا تخلو من تشويه وتزييف وقد تصدى لكشف أقنعتها بعض الكُتّاب الأجانب أنفسهم»[16].

ويورد مجموعة مهمة من النصوص التي تعرّف بالمنطقة وسكّانها، فيذكر تعريف أبو عبيد البكري في كتابه "المسالك والممالك" «وأودغست مدينة كبيرة، بها جامع، ومساجد كثيرة، في جميعها المعلّمون للقرآن، وحولها بساتين، وسكانها أرباب نعم جزيلة، وأموال جليلة، وسوقها عامر بالدّهر كله، لا يسمع الرجل فيه كلام جليه لكثرة جمعه وضوضاء أهله، وتبايعهم بالتبر، وليست عندهم فضة، وبها مبان حسنة، ومنازل رفيعة، وهو بلد ألوان أهله مصفرّة وأمراضهم الحميات والطّحال، لا يكاد يخلو من إحدى العلّتين أحد منهم، ويجلب إليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الإسلام على بعد، وسكّانها أهل أفريقية، وبرماجنة، ونفوسة، ولواتة، وزناتة، وفغزاوة، هؤلاء أكثرهم ... ويجلب منها العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم، وذهب أدوغست أجود ذهب أهل الأرض وأصحّه»[17].

ثم يذكر تعريفات أخرى لمؤرخين فرنسيين تتناول أصول سكان أهل المنطقة، ونشاطهم الاقتصادي، والثروات التي يكتنزها باطن الأرض. بعد ذلك يعرض سياسة الدول الاستعمارية وبخاصّة فرنسا وألمانيا في السيطرة والاستحواذ على البلاد الإفريقية.

وبإسهاب كبير يتناول في محاضرته مقاطع من كتاب الصحفي الفرنسي كلود موريس روبيير المعنون بـ(ناسك الهقار) أو "حياة شارل دوفوكو في الصحراء" والذي طبع سنة 1938.

ولاية أدرار:

16- المهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص 327.
17- البكري، المصدر السابق، ص 697.

ومن المدن التي لاقت اهتماما من الشيخ المهدي البوعبدلي للتطرّق لتاريخها الثقافي وإبراز تراثها الأدبي والعلمي "مدينة أدرار"، التي أفرد لها مقالا بعنوان: "ماضي أدرار الحضاري والثقافي عبر العصور"[18]، وهذه المحاضرة في الأصل هي مستلّة من نسخة مرقونة تقع في 10 صفحات، قام بإلقائها أثناء زيارتها في إطار النشاط الثقافي الذي تنظمه وزارة الشؤون الدينية بأمّهات مدن الوطن.

وكما هو مصرّح به على لسان الشيخ المهدي البوعبدلي، أنّ الهدف من هذه المحاضرة ليس الحديث عن تاريخ المنطقة وإنّما تناول مناطقها الشاسعة التي تشمل واحات (توات) و(قورارة) و(تديكلت)، والتي لها مكانة مرموقة في التاريخ الإسلامي بصفة عامة، وفي تاريخ بلاد المغرب العربي بصفة خاصّة، وذلك بحكم موقعها الجغرافي الذي يجعلها ملتقى بلاد الشمال بالجنوب من جهة، والوصل بين بلاد المغرب وبلاد المشرق من جهة ثانية.

ونظرا لأهميتها الجغرافية التجارية في الربط بين القوافل التجارية التي كانت تنطلق من عواصم بلاد الشمال إلى جنوب السودان، ومحطة رئيسية لقوافل الحجّاج والتجار في مسالكهم من المغرب إلى المشرق، بالإضافة إلى اتخاذها مهجرا ومستقرا لكثير من اللاجئين السياسيين الذين غادروا ديارهم عبر مختلف العصور.

ويشير الشيخ المهدي البوعبدلي أنّ هذه المنطقة اهتمام الجغرافيين والرّحالين ابتداء من القرن الثالث الهجري، منها (رحلة الحاج عبد القادر بن سيدي عمر التنيلاني) و(رحلة مولاي هاشم بن أحمد) المشهور بسيدي باهية، من علماء القرن الثاني عشر، وكذلك (رحلة أبي زيد عبد الرحمن بن عمر التواتي ت. 1139هـ) الذي كان ينقل عن (العلامة الحاج بوبكر بن بالقاسم الزجلاوي)، و(كتاب البسيط في أخبار تمنطيط) و(تأليف الشيخ أحمد بن القاضي أبي محلي السجلماسي) و(رحلة العياشي)[19].

ويؤكّد المؤرّخ العلامة البوعبدلي على أنّ هذه المنطقة شغلت هذه المنطقة اهتمام بعض الكتّاب الفرنسيين أبرزهم الرائد الفرنسي أ. س مارتان (A. C. Martin)، حيث جمع الكثير من الوثائق المتعلقة "ببلاد توات" بحكم وظيفته الإدارية من الخزائن العامة كخزائن المساجد والزوايا ومن الخزائن الخاصة وترجمها إلى الفرنسية، ثم أصدرها في أوائل القرن العشرين تحت عنوان (أربعة قرون من تاريخ المغرب: الصحراء من سنة 1504 إلى سنة

18- البوعبدلي، المرجع السابق، ص 371.
19- المرجع السابق، ص 372- 373.

1902، والمغرب من سنة 1394 إلى سنة 1912م)[20]، تكمن أهمية هذا العمل في مجموع الوثائق التي شملت تاريخ هذه المناطق ابتداء من القرن التاسع الهجري، حياة القبائل الثقافية والسياسية والاقتصادية وحتى الحربية أيام السلم والحرب، والتواصل الثقافي والتجاري والسياسي بين سكان هذه المناطق إلى ما بعد الاحتلال الفرنسي حيث أصبحت ملجأ كثير من الثوار الجزائريين من أمثال أبناء يدي الشيخ وبوشوشة وبوعمامة ... إلخ.

خزائن الكتب في بلاد توات:

تتجلى أهمية منطقة بلاد توات بتاريخها الثري والمتنوع في المجال الثقافي؛ فقد كانت مركز إشعاع حضاري لا يقل أهمية عن باقي العواصم العلمية الإسلامية المعروفة ببلاد الشمال مثل بجاية وتلمسان ومازونة، وقد زادت قيمتها التاريخية بما حوته من خزائن علمية جمعت نوادر المخطوطات من مختلف بلاد العالم الإسلامي كما أشار إلى ذلك الرحالة أبو سالم العياشي عند حديثه عن خزانة الشيخ محمد بن إسماعيل القوراري الذي جمع فيها 1500 تأليف كلها منتقاة من إسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية آنذاك.

ومن الذين تحدّثوا عن خزائنها العلمية أيضا الرحالة مولاي هاشم بن أحمد المشهور بسيدي باهية التي اطّلع عليها بتوات، حيث أرجع نسبة هذه الخزائن لأصحابها لاجئين من تلمسان ومن عاصمة الجزائر بعد تعرض مدن الشمال الجزائري لغارات الاحتلال الإسباني على تلمسان، وهران، مستغانم، الجزائر، بجاية إلى غاية طرابلس بليبيا أوائل القرن العاشر الهجري، ومن بين هذه الخزائن العلمية ذات الأهمية المعرفية والثقافية والتاريخية خزانة تحتوي على تآليف الشيخ عبد الرحمن الثعالبي أحد أشهر أفراد عائلة الثعالبية، إذ انتهى المطاف بها —أي هذه الخزانة- في قرية بغيول بتسابيت .

ويذكر الشيخ المهدي البوعبدلي أهمية منطقة توات بما تزخر به من واحات التي هي عبارة عن مجمعات سكنية يطلق عليها اسم (القصر) واسم (القصبة)، ومن أهم القصور بها قصر لمنصور وابن أدراعوا وأدرار (المدينة الحالية)، وقرمللي المعروفة سابقا باسم (أغرم)، وواحة تيمي التي اشتملت على 20 قصرا، منها (أدار الحالية) التي صارت قاعدة بلاد توات بدل (تمنطيط)، وبها زاوية البكري، وزاوية حيدة، وفي الجنوب الشرقي لسبخة تيمي توجد (تمنطيط) والتي بغربها يوجد امقيد وواحة بوفادي وتسمى أيضا بأولاد الحاج،

20- المرجع السابق، ص 373.

وأيضا مقرة التي كانت قصرا عامرا فيما مضى، ثم زاوية سيدي عبد القادر، وزاوية سيدي يوسف.

من خلال تتبع ما ذكره الشيخ المهدي البوعبدلي في هذه المحاضرة استطعنا أن نحصي الآتي:

1. الخزائن العلمية: ذكر ثلاثة (03) أنواع من الخزائن، خزائن خاصة تابعة للشيوخ أو الزوايا مثل خزانة الشيخ محمد بن إسماعيل القوراري آنفة الكر، وخزائن خاصّة بالبيوت والأسر العلمية مثل خزانة الشيخ الثعالبي، وخزائن خاصة لم يحدّد بالضبط لمن ترجع ملكيتها ولكنه أشار للقوم بصفة العموم مثل ما ذكره من خزائن أهل تلمسان اللاجئين إليها فرارا من غارات الإسبان.
2. القصور: 100 قصر موزعة على مختلف الواحات والقصبات.
3. الزوايا: 12 زوايا ذكرت بالاسم، وهي زاوية حيدة، زاوية البكري، زاوية سيدي عبد القادر، زاوية سيدي يوسف، زاوية الدباغ، زاوية ميمون، زاوية ركان (رقان)، الزاوية الزيانية، الزاوية الرقادية، الزاوية الكنتية، زاوية سيدي أبو الأنوار، زاوية هيبة بأولف.

وهناك بعض المناطق لم يذكر عدد الزوايا بها تفصيلا بل اكتفى بعبارة "عدة زوايا" أو "العديد من الزوايا".

4. البيوت والأسر العلمية: ذكر (08) بيوت أو أسر علمية، اشتهر أفرادها بتوارث العلم دراسة وتأليف وهي: أسرة الثعالبي، أسرة المغيلي، أسرة العصنوني، أسرة عبد الجبار الفجيجي، أسرة بني منيار، أسرة الجعافرة، أسرة سيدي يحي ابن ابدير، أسرة الشيخ محمد بن الحاج عبد الرحيم التمنطيطي صاحب كتاب (البسيط في أخبار تمنطيط).

إذا أضفنا أصحاب الزوايا والبالغ عددهم 12 يضاف إليهم الأسر العلمية 08، فالمجموع هو 20 أسرة علمية، من دون إغفال الزوايا التي لم تذكر كما سبقت الإشارة إليه أعلاه.

في ختام هذا البحث تجدر الإشارة إلى بعض الدراسات الغربية التي أولت عناية لتاريخ هذه المنطقة، منها الباحث (طادوز لويكي) (Tadeuse Leuiki)، من جامعة بولندا الذي خصّص دراسة بعنوان (أصل قبائل صنهاجة النّازحة من بلاد الشمال إلى

الصّحراء)، والتي قدّمها لمؤتمر حضارات غرب البحر الأبيض المتوسط المنعقد في جزيرة مالطة بتاريخ 23- 28 يونيو 1976، وأيضا (قوديو أنيليو) صاحب كتاب "حضارات الصّحراء".

مدينة بشار:

كانت آخر مدينة من مدن الجنوب الغربي التي تعرّض لها الشيخ المهدي البوعبدلي بالدراسة والتحقيق في تاريخها الثقافي هي "مدينة بشار"، والتي خصّها بمحاضرة عنوانها: "لمحات تاريخية من حياة بشّار الثقافية في القرنين التاسع والعاشر للهجرة"[21]، وذلك في إطار النشاط الثقافي الذي تشرف عليه (وزارة الشؤون الدينية) عبر مختلف مدن الوطن، وألقيت هذه المحاضرة بتاريخ يوم 6 ربيع الأوّل 1398هـ الموافق لـ: 14 فبراير 1978م على الساعة السادسة والنصف مساء بقاعة سينما البلدية ببشار.

موضوع المحاضرة كما جاء في مقدمة ديباجتها على لسان صاحبها أنها تتناول بالبحث جوانب من منطقة (بشّار) في المجالين الثقافي والسياسي، والذي سنركز عليه الحديث في هذه الورقة العلمية هو الجانب الثقافي لأنّه ذو صلة بعنوان هذا المؤتمر الذي يركز على الدور العلمي والثقافي لمدن الجنوب الغربي من الجزائر.

ومن بين المصادر التي اعتمدها الشيخ المهدي البوعبدلي في هذه المحاضرة، شهادة الكاتبة والصحفية المشهورة (إزابيل إيبرهاردت) الروسية الجنسية، وذلك من خلال كتابها (في ظل حرارة الإسلام)، وهو عبارة عن مجموعة من المقالات التي دونتها باللغة الفرنسية ضمن انطباعاتها التي سجّلتها في زياراتها للقرى من رحلتها الشهيرة من عين الصفراء إلى الجنوب، فكانت ب(بشار) إحدى تلك المناطق التي قدّمت بخصوصها شهادتها عنها.

ومن بين المصادر القديمة التي اعتمدها كتاب (فتح الرحمن في شرح عقد الجمان) من تأليف العلامة الشيخ محمد الجوزي المشهور بـ(المزيلي) عند المؤرخين، و(عقد الجمّان) هذا من تأليف العلامة الشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد التّوجيني من علماء القرن الحادي عشر وقد أسماه (عقد الجمان النّفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس)؛ فهو من خلال عنوانه يدل على أنّه من كتب (التراجم).

21- نفس المرجع السابق، ص 429.

ولتبيان أهمية مدينة بشّار العلمية والثقافية، ذكر الشيخ المهدي البوعبدلي في مطلع محاضرته أنّه ذكر قصرين من قصورها ذات الأهمية البالغة من حيث الاشتهار بالعمران والحضارة من قديم، هما قصر القنادسة وقصر فجيج، وقد اختار اقتصار الحديث عن قصر فجيج، وهذا دون أن ينسى أهمية جنوب المنطقة والمعروفة بمنطقة (الساورة) التي شهدت مناطق ضاربة عبر التاريخ.

1- القصور: ذكر قصرين (02) هما قصر القنادسة، قصر فجيج.

2- المراكز العلمية: ذكر (03) مراكز علمية هي: مركز كرزاز، القنادسة، وفجيج.

3- الأسر العلمية: ذكر أسرة (02) وهي أسرة الشيخ عبد الجبار بن أحمد الفجيجي صاحب منظومة (الصيد) المشهورة بـ(روضة السلوان) وبـ(العينية) وكذلك بـ(السلوانية)، والتي شرحها ابن أخيه العلامة الشيخ أبو القاسم ابن الإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الجبار بن أحمد ابن موسى البرزوزي الفجيجي وقد سمّى شرحه هذا (الفريد في تقييد الشريد وتوصيد الوبيد). وأسرة الشيخ عبد الحق السكوني.

4- علماء وأدباء منطقة فجيج: ذكر الشيخ المهدي البوعبدلي (13) علماء وهم: الشيخ محمد بن أحمد بن عبد الجبار الفجيجي، الشيخ أبو القاسم ولد أخيه، القاضي أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الجبار، القاضي أبو عبد الله سيدي محمد، القاضي أبو العباس سيدي أحمد، الشيخ سيدي عبد الجبار بن أحمد، موسى الشريف الحسني الودغيري، الشيخ أبو الحجاج يوسف، الشيخ ابن أبي مهدي عيسى الشريف، الشيخ يوسف الشريف الفجيجي، الشيخ عبد الحق السكوني، الشيخ أحمد بن القاضي أبي يعلى المعروف بأبي محلي.

5- منظومة (الصيد) أو (روضة السلوان) لمؤلفها الشيخ عبد الجبار بن أحمد الفجيجي والتي تحتوي على 213 بيتا: لقد خصّها الشيخ بالدراسة والتحليل لأهميتها الأدبية واللغوية، وذلك من الصفحة 442 إلى غاية الصفحة 445، وقد أشار في ختام كلامه عنها أن الشيخ العالم الباحث عبد الله قنون قد قام بنشر فقرات منها في سلسلة تأليفه المعروف بـ(النبوغ المغربي في الأدب العربي)، كما أنه سبق نشر (المنظومة) مجردة من الشرح بـ(التقويم الجزائري) الذي كان يصدر بمدينة الجزائر قبل الحرب العالمية الأولى، وذلك منذ ما يزيد على نصف قرن وبالضبط خمس وستون سنة، كما نشر فصولها الشيخ عبد القادر نور الدين المرس المدرسة الثعالبية مع أستاذ فرنسي.

الخاتمة: يمكن اعتبار كتاب "تاريخ المدن" إضافة مهمّة إلى المكتبة التاريخية الجزائرية، حيث يعتبر مرجعا غنيّا بالمعلومات المتنوّعة وبخاصّة ما تعلّق منها بالجانب الفكري والثقافي.

ممّا لا شكّ فيه أنّ الشيخ البوعبدلي ترك قليلا من المؤلفات، مقارنة مع ما بذله من جهد في سبيل إحياء التراث وكتابة المقالات والبحوث، والمشاركة في الملتقيات الوطنية والدّولية، من خلال المحاضرات العلمية في التاريخ والثقافة، إلاّ أنّها نفيسة ومهمّة، وكلّها تتعلّق بتاريخ الجزائر الثقافي والفكري.

وقد استرعى انتباهنا ونحن ندرس هذا الكتاب، إلى أنّ أسلوبه في الكتابة يمتاز بكثرة الاستطراد، ولم يكن يلتزم بمنهج أكاديمي، فهو كما يقول القدماء بحر لا ساحل له، يتدفق بالمعلومات، يتتبع مراحلها وفروعها، ثم يرجع إلى نقطة البداية، هذا ما لاحظناه من خلال كتاب "تاريخ المدن".

ولقد تمكّن الشيخ المؤرخ المهدي البوعبدلي من تسليط الضوء على إسهامات مدن جنوب الجزائر في التاريخ الفكري، الثقافي والحضاري، ويمكن اعتبار هذه البحوث إضافة غنية إلى تاريخ المنطقة المحلي والوطني.

قائمة المراجع:

1. ابن حوقل أبي القاسم محمد بن علي النصيبي، كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، 1992.
2. البكري أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز، كتاب المسالك والممالك، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
3. البوعبدلي الشيخ المهدي، تاريخ المدن، الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، إصدار المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، المجلد 2، الجزائر، 2013.
4. الراشدي أحمد بن محمد، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي، ط 1، الجزائر، 1973.
5. الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران وأخبار مدينة وهران، تحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط 1، الجزائر، 2013.
6. عويمر مولود، الشيخ المهدي البوعبدلي (1907- 1992)، راهب التاريخ، "البصائر"، العدد 6، جوان 2018.
7. مباركة حمو علي، نكرا، حنان، قبائل الطّوارق من خلال المستكشفين هنري دوفيري وشارل دوفوكو أنموذجا، مذكرة ماستر غير مطبوعة، قسم التاريخ، جامعة أدرار، 2020.
8. الناصري محمد أبو راس الراشدي، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تحقيق وتقديم محمد غانم، المركز الوطني للبحث في الأنتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، 2005.

9. الهاشمي آمال، الوضع الاجتماعي والفكري لطوارق الهقار، رسالة ماجستير غير مطبوعة، جامعة وهران.
10. الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقيا والأندلس والمغرب، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، 1981.
11. Gsell Stephane (1864- 1932), Historie ancienne de l'Afrique du Nord, Paris, 1913.